تطبيقات البديع عند أبي تمام

حميد مخلف الهيتي
الجامعة المستنصرية

تقديم في الصراع بين القديم والحديث

ان الحديث عن ابي تمام[1] شاعرا وفنانا لا يخرج عن دائرة الحديث عن الصراع التقليدى في مجال الفنون الادبية بين القديم والحديث في كل زمان ومكان وكان حظ العصر العباسى الاول - الذي عاش فيه الشاعر - من هذا الصراع بالغا وعنيفا تمثلت صوره في عصبية المحافظين للقديم ودعوتهم الى ضرورة سلوك الشعر ضمن الاطر الفنية التي رسمتها القصيدة القديمة ومحاولات المحدثين الانعتاق من تلك القيود للتعبير عن المجتمع الحضري الجديد الذي بدأ يلهم الشاعر فنه ويوجه خواطره في مناخ حضارى متطور .

---

(١) أنظر في ترجمة وأخبار أبي تمام حبيب بن اوس الطائي .
أخبار أبي تمام للصولي (لجنة التاليف والنشر) ص ٢٤٦ ،
دائرة المعارف الاسلامية .
طبقات الشعراء لابن المعتز تحقيق عبدالستار احمد فراج ص ٢٨٤
ابو تمام الطائي حياته وحياة شعره - نجيب محمد البهبيتي - القاهرة ١٩٤٥ .
الموازنة بين أبي تمام والبحتري - للآمدي - تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد - القاهرة ١٩٥٩ .
كتاب العمدة لابن رشيق - تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد - ط٣ - ١٩٦٣ .
الموشح للمرزباني ٤٦٤ .
الاغاني - لابي الفرج الاصفهاني ١٦/٣٨٣
تاريخ بغداد - الخطيب البغدادي - بيروت ٨/٢٤٨
شذرات الذهب لابن العماد ٢/٢٠١-٣٥٠- نشر مكتبة القدسي .

لقد عانى المحدثون والمولدون من شعراء المائة الثانية للهجرة من عنت الرواة وعلماء اللغة وهم الجبهة المحافظة التي ملكت ناصية الحكم على الادب وأهله فمن نوهوا به وأجازوه لمع نجمه وطار ذكره ومن خرج على سبيلهم كبتوه واخملوا ذكره وقد أستطاع هؤلاء من خلال سيطرتهم الادبية واللغوية على البلاط العباسي وأشتغالهم في تعليم أولاد الخلفاء والقادة توجيه ذوق البيت العباسي توجيها محافظا لا يفتح أبوابه ألا لمن يخرجونه ويرضون عنه .

وقد أضطرت الطلائع المجددة من الشعراء المخضرمين والمولدين من أمثال أبن هرمة وبشار بن برد وابي العتاهية وأبي نؤاس وغيرهم الى محاباة اللغويين والرواة كالاصمعي وابي عبيدة وأبن الاعرابي والمدائني وابي عمرو بن العلاء وعمر بن شبه وابي هفان وخلف الاحمر ويونس النحوي وأبي حاتم السجستاني[1] الى النظم على الانماط القديمة وأعتماد الغريب والوحشي في اشعارهم حتى أذا شهد لهم هؤلاء بالحذق والبراعة وتمكنوا من الشهرة على أيديهم أولا سلكوا في طريق التجديد ينفذون الى بيئتهم العصرية بثقة ويقفون في ثورتهم على ارضية صلبة وشهادة باتعة من سدنة الادب وأصحاب الكلمة فيه .

أن بوادر التجديد عند بشار بن برد وجيله سلكت في بادىء الامر طريقاً متوسطة في اللغة بين بلاغة القصيدة القديمة ولغة المحدثين وتصرف الشعراء بعده مستنيرين به بين متوسط مثله كمسلم بن الوليد ومتبسط في اسلوبه يقارب لغة العامة احيانا كأبي نؤاس وابي العتاهية حتى اذا جاء القرن الثالث الهجرى تصدر أبو تمام حركة التجديد فاعطى لها من ثقافته واطلاعه وذكائه ما قرر منهجها وقوم فخامة لغتها على جزالة اللسان العربي سالكا في التوليد والتجديد والبديع ما فتق أبواب البلاغة للاجيال بعده[2] .

لاشك أن موقف المحافظين من الشعراء قد خدم حركة التجديد

---

(١) علي الزبيدي في الادب العباسي ٨١ وما بعدها .

(٢) راجع شوقي ضيف ـ العصر العباسي الاول ص ١٣٩ .

من جانب اخر لانه دفع الشعراء المولدين الى شد انفسهم بالتراث يأخذون انفسهم بثقافة واسعة من لغة وآثار الاوائل للتزود بالاسس الضرورية للبناء الفني متلمذين على اساتيذ الشعراء الفحول وقد سلك الشعراء من أجل هذه الغاية في الرحلة الى الصحراء لمشافهة الاعراب وتوقيح السنتهم على الفصحى التي انحسرت عن المدينة أو ملازمة الفصحاء من تلامذة الصحراء الذين عملوا مؤدبين في المدن من أمثال « أبي البيداء وأبن الدمينة وأبن ميادة وأبي حية النميري وأبن ضمضم الكلابي والعماني وشبيل بن الضبعي وأبي العميثل وعمارة بن عقيل »[1] .

وقد بلغ من شدة حذر الشعراء من سلطان المحافظين أن نفرا منهم من معاصري بشار بن برد وقفوا عند التقليد لمنهج القدماء ولم يشاركوا كثيرا في حركة التجديد التي بدأها رفاقهم ومن هؤلاء مروان بن ابي حفصة والسيد الحميري وأبو دلامة وأن أولهم لم يتجاسر على انشاد قصيدته في مدح الخليفة المهدي الا بعد عرضها على يونس النحوي ورضاه عنها ومطلعها[2] .

طرقتك زائرة فحيّ خيالها

ولم يسلم الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث من عبث الرواة وأنتحالهم[3] وقد سبب ذلك أرتباكا في دواوين الشعراء وهدرا لكثير من اشعارهم فأبو تمام الذي ذكر أبن المعتز في طبقاته « ان له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة » لم يثبت في ديوانه المطبوع الا ثلث هذا العدد تقريباً[4] وهذا التصرف يقلل من ادعاء حرص الرواة المرصود للامانة العلمية على آثار الشعراء ويشكك في تحري الصدق في النقد الموجه الى

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٦٥ طبعة القاهرة

(٢) الاغاني (طبعة دار الكتب) ٨٢/١٠

(٣) انظر بحث الدكتور علي الزبيدي – دواوين الشعراء العباسيين حتى نهاية القرن الرابع الهجري مجلة كلية الاداب ١٩٦٦ بغداد .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٨٦ .

المحدثين لكثرة ما تترادف التهم على نصوص ليست لهم .

ويحسن بنا أن نسوق - هنا - خبرين اثنين على سبيل المثال لا الحصر عن تعصب المحافظين للقديم بدون حق ضد ابي تمام بعيدا عن الحق والعدل وقد ذكرهما الصولي في اخباره فقال :

« ومن الافراط في عصبيتهم عليه ما حدثني به أبو العباس عبد الله بن المعتز قال : حدثت ابراهيم بن المدبر ورأيته يستجيد شعر ابي تمام ولا يوفيه حقه بحديث حدثنيه أبو عمر بن ابي حسن الطوسي وجعلته مثلا له قال : وجه بي أبي الى أبن الاعرابي لاقرأ عليه اشعارا وكنت معجبا بشعر ابي تمام فقرأت عليه من أشعار هذيل ثم قرأت ارجوزة أبي تمام على انها لبعض شعراء هذيل .

وعاذلٍ عذلته في عذلهِ فظنَّ أنّي جاهل من جهلهِ

حتى اتممتها فقال : أكتب لي هذه ، فكتبتها له ، ثم قلت احسنتهي؟ قال : ما سمعت باحسن منها قلت : أنها لابي تمام فقال ، خرق خرق[1] « أي مزقها » » .

وقال في مكان اخر « حدثني علي بن محمد الاسدي قال : حدثني أحمد بن يحيى ثعلب قال : وقف أبن الاعرابي على المدائني فقال له :الى أين يا أبا عبدالله قال : الى الذي هو كما قال الشاعر

نحمل اشعارنا الى ملك نأخذ من ماله ومن ادبه

قال أبو بكر : فتمثل بشعر ابي تمام وهو لا يدري ولعله لو درى ما تمثل به وكذلك فعل في النوادر جاء فيها بكثير من أشعار المحدثين ولعله لو علم بذلك ما فعله »[2] .

وأمثال هذه الاخبار كثيرة جرت في حق بشار وابي نؤاس ومسلم

---

(١) الصولي أخبار أبي تمام ١٧٦ .
(٢) الصولي أخبار أبي تمام ١٧٧ .

وغيرهم وهي – كما نرى – صور من العناد والتعصب الظالم على المحدثين والمولدين والشعراء العباسيين .

ولم يعدم هؤلاء المجددون انصارا من النقاد وقفوا الى صفهم أو سلكوا قافية وسيطة بينهم وبين خصومهم ولولاهم لضاعت بقية أشعارهم كما ضاع غيرها ومن هؤلاء قدامة بن جعفر والصولي والثعالبي والجرجاني وعبدالله بن المعتز وفي هذا الاتجاه يقول ابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء :

« ولم اسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه والى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه ، فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيَّره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا انه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله »(١)

وفي ختام هذا التقديم وقبل الدخول في تفاصيل موضوع البحث اجد من العدل أن أثبت أن شاعرا عظيما كأبي تمام وقف على أشعار الاوائل واعياً ومدركاً وبرع في اختيار الجيد منها في « حماسته » وبقية مختاراته براعته في صناعة أشعاره لا ينبغي أن يتناوله منتقدوه بالثلب لانه تزعم المولدين في عصره ولانه توسَّل في بديعه الى أعطاء الصيغ الشعرية تلويناً جميلا وتحريكا يشدها الى العصر والانسان مع محافظة بارعة على انماط الفصاحة والجزالة والبناء اللغوي المتين للقصيدة العربية .

أن أبا تمام أمسك بزمام الشعر في عصره ومخض تجارب المجددين قبله فأرسى رسومها وثبت اختلاجها ووضعها على المحجة الوسطى ليسلك فيها كل موهوب بعده يعشق الفن تجربة وتصنيعا .

---

(١) ابن قتيبة – الشعر والشعراء – المقدمة .

اولية البديع ومنزلة أبي تمام فيه : -

جاء في القاموس المحيط تحت مادة (بدع) : « البديع ، المتبدِع ، والمبتدَع، البدعة ، الحَدَث ، ابدَع الشاعر .. أتى بالبديع»[1] فتكون الكلمة في اللغة مرادفة لكلمة الجديد والمخترَع والجميل .

وجاء في كتاب العمده لابن رشيق في باب البديع « وأما البديع فهو الجديد واصله في الحبال وذلك أن يفتل الحبل جديدا ليس من قوى حبل نقضت ثم فتلت فتلا اخر وانشدوا للشماخ »[2]

اطار عقيقه عنه نسالا وادمج دمج ذي شطر بديع

ويعتبر كتاب البديع لعبدالله بن المعتز من اوائل الكتب المؤلفة فيه وقد حصر فنونه بخمسة موضوعات هي « الاستعارة والتجنيس والمطابقه ورد الاعجاز على الصدور والمذهب الكلامي »[3] وجعل ما سوى ذلك من المحاسن وأجاز لمن شاء أن يسميها بديعا ويعقب صاحب العمدة على رأي ابن المعتز في البديع فيقول : « والبديع ضروب كثيرة وأنواع مختلفة وأنا أذكر منها ما وسعته القدرة وساعدت فيه الفكرة ، وعندما يستعرض جوانبه يستوفي أغلب الفنون المعروفة في علم البلاغة عند المتأخرين من بيان وبديع ومعان .

ونكاد نخلص الى أن مفهوم البديع عند أبن المعتز وعند ابن رشيق يلاقي مفهوم علوم البلاغة الثلاثة عند المتأخرين مع أختلاف في المسميات والتقسيمات وايجاز عند الاول واستطراد عند الثاني .

ويعرف البلاغيون المتأخرون البديع بأنه « المحسنات اللفظية والمعنوية في الكلام » ولا يدخلون فيه موضوعات علم المعاني وعلم البيان[4] وعلى هذا

---

(١) القاموس المحيط - مادة بدع -
(٢) العمدة لابن رشيق ١/٢٦٥ وما بعدها .
(٣) نفس المصدر .
(٤) انظر جواهر البلاغة للهاشمي .
والبلاغة الواضحة لعلي الجارم .

الاساس الذي حدده أبن المعتز وأبن رشيق جرت محاكمات أبي تمام في البديع الذي اصطنعه وسلك فيه وسوف نذكر له ذلك .

أما أوليات تطبيقات البديع في اللغة العربية فهي سابقة كثيرا لعصر أبي تمام في الشعر والنثر الجاهليين وفي القرآن الكريم وعند الشعراء المتقدمين وفي ذلك يقول عبدالله بن المعتز في كتاب البديع : « وقد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وكلام الصحابة والاعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليُعلم أن بشارا وسلما وأبا نؤاس ومن تقلدهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فاعرب عنه ودل عليه ثم أن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عقبى الافراط وثمرة الاسراف وقد كان بعض العلماء يشبه الطائي في البديع بصالح بن عبد القدوس في الامثال »[1] .

ويقول أبن رشيق في العمدة « وقالوا أن أول من فتق البديع من المحدثين بشار وأبن هرمه وهو ساقة العرب وأخر من يستشهد بشعره ثم اتبعهما مقتديا بهما كلثوم بن عمرو العتّابي ومنصور النمري ومسلم بن الوليد وأبو نؤاس وأتبع هؤلاء حبيب بن أوس الطائي والوليد ألبحتري وعبدالله بن المعتز فانتهى علم البديع والصنعة اليه »[2] .

فأبو تمام لم يكن مبتكرا لعلم البديع ولا منفردا به ولكنه عني به وأكثر منه وقعد قواعده في تصنيعه فارتفق باسمه في عصره وأصبح كالمبتكر له ولو أنعمنا النظر في طبيعة البديع عند ابي تمام لوجدنا أنه لم يتوجه الى أستهلاك النماذج القديمة وأجترارها بقدر ما توجه الى أستيعاب ألوانه البديعية وتشكيلها بقوالبه الخاصة فلا تحتفظ من العلاقة بصورها عند

---

(١) البديع – ابن المعتز ص ١

(٢) العمدة ١/ ١٣١

غيره الا بالتسميات التي يصطلحها النقاد وأهل البلاغة وفي ذلك يقول الاصفهاني « وله مذهب في المطابق والمجانس هو كالسابق اليه جميع الشعراء وأن كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه فان له فضل الاكثار منه والسلوك في جميع طرقه[1]»، وبمعنى اخر أن أبا تمام ان لم يكن مبتكرا للبديع فأنه مبتكر ومجدد في تصنيع البديع ونظمه في عقد قصائده التي تروع وتخلب ولعله لم يتجاوز حقيقة نفسه حين وصف شعره بقوله :-

خذها مغربةً في الارض آنسةً بكل فَهمٍ غريبٍ حين تغترب

وقوله مصنعا :

يغدون مغترباتٍ في البلاد فما يزلن يؤنسن في الافاق مغتربا

وقوله مشيرا الى وشيه وترصيعه :

خذها مثقفةَ القوافي ربها لسوابغ النعماء غيرُ كنودِ
صفراء تملأ كل اذن كلمةً وبلاغةً وتدر كلَّ وريد
كالدر والمرجان أُلف نظمه بالشذر في عنقِ الفتاةِ الرود
كشقيقة البُرد المنمنم وشيه في ارض مهرة او بلاد تزيد

وعلى ذكر البديع في آثار المتقدمين نؤكد أن ذلك كان يقع لهم اتفاقاً غير مقصود على سبيل الطروء والسوانح التي يقتضيها السياق ولم يكن عندهم أداة للتجميل والتجويد بالشكل الذي قصد اليه المصنعون وعلى رأسهم أبو تمام وأن الوقوف على دراسة تطبيقاته في نصوص السابقين يقتضي اطالة لا يتطلبها البحث وسنكتفي - هنا - بأيراد أمثلة موجزة لذلك من القرآن الكريم والشعر فمن الاستعارة والمطابقة قال تعالى في كتابه العزيز «كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور» وفي

---

(١) الاغاني ١٥/ ١٠٠ - ١٠٨

الاستعارة المكنية قوله ايضا (ربِّ اني وهن العظم مني وأشتعل الرأس شيباً)[1] وكذلك قوله (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار)[2] .

ومن استعارات امريء القيس الجيدة قوله وقد جعل الليل يتمطى وجعل له أردافا وكلكلا .

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل[3]

وقال زهير وقد استعار للسهول افراسا ورواحل

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعري افراس الصبا ورواحله[4]

وأحسن طفيل الغنوي في هذا الباب بقوله :

وجعلت كوري فوق ناجية يقتات شحم سنامها الرحل[5]

ومن السبق في التجنيس قوله تعالى « واسلمت مع سليمان لله رب العالمين »[6] وقوله « خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل »

وقول القطامي : [7]

كنية الحي من ذى القيظ فاحتملوا مستحقبين فؤادا ما له فاد

وقوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة ، يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » .

ومن السبق في المطابقة والمقابلة قوله تعالى « ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب »[8] وقول الرسول صلى الله عليه وسلم وهو من المقابلة « أنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع »[9] وقول طفيل الغنوي :

بساهم الوجه لم تقطع اباجله يصان وهو ليوع الروع مبذول[10]

---

(١) الاية ـ٤ـ من سورة مريم .
(٢) الاية ٣٧ من سورة يسن .
(٣) الموازنة ١٧
(٤)(٥) نفس المصدر
(٦) الاية ـ٤٤ـ سورة النمل
(٧) الموازنة ص ١٨
(٨) سورة البقرة الاية ١٧٩
(٩) الموازنة ١٩
(١٠) البديع لابن المعتز ٣٩

ومن السبق في تشبيه الصورة الملفوف قول امريء القيس

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رطباً ويابساً لدى وكرها العُنّاب والحشفُ البالي

لم يختلف منتقدو أبي تمام في منزلته من البديع وتعلقه به وولعه باطرافه ولكنهم أختلفوا في مدى قبولهم له بين معجب لا يرى له مثيلا وبين منكر عليه اسرافه في طلبه وتحريه لالوان بديعه والمسألة هنا ـ أيضا ـ مسألة صراع بين القيم والمفاهيم جيل يعبد القديم ولا يرى احسانا في غيره وجيل متمرد يتحرك مع عصره ويتعامل بذوقه ويتصدر الصولي في كتابه « أخبار ابي تمام » حملة الدفاع عن ابي تمام وتجديده بينما يتصدر الآمدي في كتاب (الموازنة) حملة النعي على تكلف ابي تمام وتصنيعه ولو كان ذلك من طرف خفي وهكذا سلك المتأخرون بعدهم حتى الوقت الحاضر .

فالصولي مثلا يعجب من أختلاف الناس في شعره مع شهادة ذوي الفضل له فيقول « وعجبت من افتراق الناس فيه حتى ترى أكثرهم والمقدم في علم الشعر وتمييز الكلام منهم والكامل من أهل النظم والنثر فيهم يوفيه حقه في المدح ويعطيه موضعه من الرتبة ثم يكبر باحسانه في عينه ويقوى بابداعه في نفسه حتى يلحقه بعضهم بمن يتقدمه ويفرط بعض فيجعله نسيج وحده وسابقا لا مساوي له وترى بعد ذلك قوما يعيبونه ويطعنون في كثير من شعره ويسندون ذلك الى بعض العلماء ويقولونه بالتقليد والادعاء اذ لم يصح فيه دليل ولا اجابتهم اليه حجة »[1] .

وقال فيه عمارة بن عقيل[2] بعدما سمع قصيدته الدالية التي مدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي :

غدتْ تستجيرُ الدمعَ خوفَ نوى غد

وعاد قتادا عندها كلُّ مورد

---

(١) الصولي اخبار ابي تمام ص ٣

(٢) الديوان ص ١٠٠

مكتبة قسم اللغات الشرقية
كلية الآداب

فأجرى لها الاشفاق دمعا مورّدا من الدم يجري فوق خد مورّد

. . . .

فأني رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

« ان كان الشعر بجودة اللفظ وحسن المعاني واطراد المراد واستواء الكلام فصاحبكم هذا أشعر الناس وان كان بغيره فلا أدري » .

ويركز نقاد ابي تمام على تصرفه في الغموض وحزونة الالفاظ وهذا أمر سوف نناقشه لاحقا وفي ذلك يقول ابن المعتز « وأكثر ما له جيد والرديء الذي له انما يستغلق لفظه فقط » وفي مجال الموازنة بينه وبين البُحتري يقول « وذلك أن البحتري لا يكاد يغلظ لفظه انما الفاظه كالعسل حلاوة فأما أن يشق غبار الطائي في الحذق بالمعاني والمحاسن فهيهات بل يغرق في بحره »[1] .

وقال الباقلاني منتقدا تصنيعه « فهذا وما أشبه انما يحدث من غلوه في الصنعة حتى يعميه عن وجه الصواب »[2] وقد عقد الامدي فصولا في الحديث عن سيئاته في الاستعارة والجناس والطباق كثير منها مردود عليه[3] وتحدث عنه الجرجاني في الوساطة مشيرا الى استرساله في البديع فقال « كانت الشعراء تجري على نهج من الاستعارة قريب من الاقتصاد حتى استرسل فيه ابو تمام ومال الى الرخصة فاخرجه الى التعدي وتبعه أكثر المولدين »[4] .

وقال ايضا « ان أبا تمام اسلم نفسه للتكلف يرى انه أن مر على أسم موضع يحتاج الى ذكره أو يتصل بقصيدة يذكرها في شعره من دون

---

(١) طبقات ابن المعتز ٢٨٦

(٢) اعجاز القرآن ـ الباقلاني ٥٢ سنة ١٣١٥

(٣) الآمدي ٢٣٨ وما بعدها

(٤) الوساطة ٣٢٤

ان يشتق منها تجنيسا أو يعمل فيه بديعا فقد باء بائم واخل بفرض حتم »[1] .

ويدفع الصولي عن سلوك المجددين - وقمتهم ابو تمام - فيقول «أعلم اعزك الله ان الفاظ المحدثين منذ عهد بشار الى وقتنا هذا كالمنتقلة الى معان أبدع والفاظ أقرب وان كان السبق للاوائل بحق الاختراع والابتداء والطبع والاكتفاء وانه لم تر أعينهم ما رآه المحدثون فشبهوه عيانا كما لم ير المحدثون ما وصفوه مشاهدة وعانوه مدة دهرهم من ذكر الصحارى والبر والوحش والابل والاخبية فهم في هذا أبدا دون ألقدماء كما أن القدماء فيما لم يروه ابدا دونهم وقد بين هذا أبو نؤاس بقوله :

صفة الطلول بلاغة القدْمِ فاجعل صفاتك لابنة الكرمِ[2]

بقيت نقطة هامة تكمل هذه الفقرة جديرة بالعناية والتحري هي منزلة مسلم بن الوليد في البديع باعتباره يمثل مرحلة وسيطة بين جيل بشار بن برد وأبي تمام لانه سلك في البديع بقدر يسمو على المخضرمين ويقل عن شعراء المائة الثالثة للهجرة فالآمدي - مثلا - يرى أن مسلم بن الوليد سابق لابي تمام في التصنيع فلم يقبل منه وزاد على ذلك أبو تمام فهو أحرى بالرفض[3] وقال نجيب محمد البهبيتي عن ذلك « أما مسلم فقد أخذ جانب البديع يطلب الاستعارة ويتحرى الجناس والطباق والمقابلة تحري الطالب لها حتى اتهم بأنه أول من أفسد الشعر - كان يبطىء كثيرا في صنعته ويجيدها وهو زهير المولدين ولكنه لم يخرج على القصيدة العربية »[4] وليس من شك في أن أبا تمام تأثر بمسلم وهو ينأى عن التطبيقات العفوية في الادب القديم وقد أشار الى ذلك أبو تمام نفسه في حديث أبي الغصن محمد بن قدامة من أن على يمينه اللات وعن يساره

---

(١) الوساطة ١٠
(٢) الصولي أخبار أبي تمام ١٦
(٣) الآمدي ١٩ بتصرف
(٤) البهبيتي ١٧٩ والآمدي ١٩

العزى » يقصد شعر مسلم وشعر أبي نؤاس » يعبدهما من عشرين سنة[1] على أن ذكاء ابي تمام وسعة اطلاعه ووقوفه على انماط التصنيع الاولية ووفرة ثقافته سمت بفنه الى حد ملك فيه على عصره رياسة التصنيع دون منازع وكان البحتري لا يأنف أن يشهر بأخذه عنه اذ يقول « أيعاب علي أن أتبع أبا تمام وما عملت بيتا قط حتى خطر شعره ببالي »[2] وقال ابن رشيق في العمدة مثبتا له رياسة التصنيع « مع أنه لابد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد اليها طبعه ويسهل عليه تناولها كأبي نؤاس في الخمر وأبي تمام في التصنيع والبحتري في الطيف وابن المعتز في التشبيه »[3] .

اشهر فنون البديع عند أبي تمام

من أقوال النقاد التي سبق ذكرها ومن الرؤية الفاحصة لديوان أبي تمام يجد الباحث الأستعارة والجناس والطباق هي أشهر فنون البديع التي سلك فيها أبو تمام وقد اعتمد فيها المزج والمشاكلة والصياغة المحكمة التي تنم عن رؤى فنية أصيلة قلما توفرت لغيره من شعراء العربية فاذا لجأ الى معنى لغيره وشعه بيديه وتمم معناه فكان أحق به فهو بذلك مبتدىء لمذهب سلكه كل محسن بعده فلم يبلغه فيه[4] .

وازاء تطبيقات الرجل تتهافت أكثر تهم منتقديه فاذا كان أبو تمام قد وقف على ثقافة واسعة من علوم العصر من فلسفة ومنطق وعلم كلام ، يكون غير أمين على فنه ومعطيات عصره لو صرف نظره عن وسطه وأدواته بعيدا عن فكره الواسع فجانب الغموض الذى يتحدثون عنه وجه من التصنيع الذى يكمل أنماطه في البديع وغرض من أغراضه التي سعى اليها بأطواره الخاصة لان أحدا من معاصريه لم يكن قادرا على الجري في مناهجه فهو شاعر عالم مثقف وغيره شاعر وحسب وسوف أتناول في هذا الموضع من البحث فنون البديع عنده في مجال التطبيق

---

(١) طبقات ابن المعتز ص ٢٨٤ – ٢٨٥ بتصرف

(٢) الصولي ٧٠

(٣) العمدة ١/٢٦٥

(٤) الصولي/أخبار أبي تمام ٣٣

والنقد ، كما اتضحت في شعره :

١ ـ الاستعارة : يعرف البلاغيون الاستعارة بأنها استعمال اللفظ في غير ما وضع له مع وجود علاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي هي علاقة المشابهة وبقدر ما تكون الصورة المبتكرة بالاستعارة جميلة وموحية يكون نصيبها من النجاح والقبول . ويبدو لي أن جانب العمق في استعارات أبي تمام تفرد لم يبلغه فيه أكثر الشعراء وهذا جانب منها .

قال من قصيدة يمدح فيها عبيدالله بن عبدالله بن طاهر في خراسان[1]

أهن عوادي يوسف وصواحبه
فعزما فقدما أدرك السؤل طالبه
وركب كأطراف الاسنة عرّسوا
على مثلها والليل داج غياهبه
لأمر عليهم أن تتم صدوره
وليس عليهم أن تتم عواقبه
على كل رواد الملاط تهدمت
عريكته العلياء وانضم حالبه
رعته الفيافي بعدما كان حقبة
رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

وأجود الاستعارات في هذه الابيات « رعته الفيافي » يريد أن الجمل هزل وضعف لكثرة ما أنهكته الصحراء فكأنها أكلت منه واستافت شحمه ولحمه وكان قبل ذلك يرعاها فيأكل عشبها ومن استعاراته الجميلة التي أعجبت ابن المعتز[2] :

مطر يذوب الصحو منه وبعده
صحو يكاد من النضارة يمطر

وقد جعل المطر وسطا يذيب صحو السماء كما جعل الصحو الرائق بعد المطر بليلا يكاد يمطر .

---

(١) الديوان ٣٣ـ٣٤

(٢) ابن المعتز ـ البديع ـ ٢١

وقوله أيضا :

يا سهم كيف يفيق من سكر الهوى
حران يُصبَح بالفراق ويُغبَق[1]

وقد جعل الفراق كالخمرة للصبوح والمغبوق للمحب الذى فارق الحبيب فتدله بحبه .

وقال مستعيرا الماء للقوافي :

لم تُسقَ بعد الهوى ماءً أقل قذى
من ماء قافية يسقيكه فهم[2]

ومن استعاراته التي أعجبت الآمدي قوله وقد استعار الماء للملام :

لا تسقني ماء الملام فأنني
صب قد استعذبت ماء بكائي[3]

وقال من قصيدة يمدح فيها محمد بن الهيثم بن شبابة وقد مزج بين الفن والعقل فجسد الصورة أروع تجسيد :

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه
بكفيك ما ماريت في أنه برد[4]

فقد جعل حلم الرجل وهو احساس رقيقا رقة البرد الناعم . لو لمسته بيديك .

وقد عاب الآمدي وغيره على أبي تمام بعض استعاراته واستقبحوها منه لانهم ينظرون تعبيراتهم بذوقهم الخاص الذى نهضت مفاهيمه عندهم على أساس الممارسة البسيطة للتصنيع في الشعر القديم بعيدا عن المذهب الذى انبرى له أبو تمام ولما كان الشعر في كثير من حالاته تعبير انساني كاشف عن نفس الشاعر محاولة لتصعيد اللحظات الاكثر انفعالا وكان الانفعال بطبيعته احساسا غائماً لا يفهمه حتى الشاعر نفسه اتفقت للشعراء أفانين من القول لا يمكن أن تفهم فهما عقليا كما تعودنا أن نفهم أغلب

(١) ابن المعتز – البديع – ٢٢
(٢) الموازنة ٢٤٢
(٣) الموازنة ٢٤٤
(٤) الديوان ١٢١

شعرنا العربي أقصد الى القول أن من طبيعة الشعر وهو ترجمان النفس الانسانية التى يتفق لها من ضروب الاحاسيس ما تعجز اللغة عن التعبير عنه تعبيرا كاملا فيكون التعبير تعبيرا غائما مثل الاحساس الغائم الذى يحسه الشاعر • والشاعر ههنا لا يحاول أن يقدم للقاريء الا جوا نفسيا معتما لا تتحدد فيه الحدود الفاصلة ، انه يوميء ولا يفصل ، يوحي ولا يحدد ومن هنا كانت الابيات والقصائد التى يختلف في تلقيها الناس ومن هنا كان الرمز وكان ما نسميه خطأ بالغموض لانه في طبيعته الاصيلة ليس غموضا بقدر ما هو تعبير عن حالة نفسية متأزمة لا يدركها حتى الشاعر نفسه[1] ومن هنا أيضا تنطلق أحكام الآمدي على استعارات أبي تمام وتصنيعه ومما عابه عليه قوله[2] :

تحملت ما لو حُمِّل الدهرُ شطره
لفكر دهرا أيُّ حمليه أثقل

وبقدر ما يرى الامدي في هذا البيت من قبح أرى فيه من حلاوة فأي بأس في أن يستعير الفكر للدهر ليحس ما تحمله المقصود بالبيت من الهم والهمم •

وعاب عليه أيضا قوله مستعيرا الشَرَقَ بالدهر اللئيم بدل الماء وهو تعتيم رائع في الشعر •

والدهر ألأمُ من شرقت بلؤمه
الا اذا أشرقته بكريم[3]

وقوله وقد استعار للشتاء أخدعين :

فضربت الشتاء في أخدعيه
ضربة غادرته عودا ركوبا[4]

واستقبح منه ابن الخشعمي هذه الاستعارة :

تروح علينا كل يوم وتغتدي
خطوب يكاد الدهر منهن يُصرع[5]

---

(١) كمال نشأت : شاعرية أبى تمام (بحث لم ينشر)
(٢)، (٣)، (٤) الموازنة ٢٤٢ وما بعدها
(٥) الصولي اخبار ابي تمام ٢٤٧

لانه استعار الصرع للدهر وهو أمر لا نرى فيه بأسا على أبي تمام واستعارته هنا تعد من روائع هذا الفن .

في ضوء ما تقدم نعود فنؤكد من جديد أن مذهب الامدي وغيره في نقد أبي تمام لا يقوم على أساس تقويم شعره بالموازين المتطورة وأن الغموض المحسوب عليه يشكل - في نظرنا - الجوانب الرائدة الفذة في الحركة التجديدية للشعر العربي في القرن الثالث الهجرى وكان أبو تمام رأسا لها .

٢ - الجناس : يعني الجناس عند البلاغيين اتفاق الكلمات باللفظ واختلافها بالمعنى وهو من المحسنات اللفظية في الكلام ويتخذ الجناس في بديع أبي تمام صورا من الاناقة في التصنيع ترفع من مستوى شعره شكلا ومضمونا لان الجناس عنده لا يعني المشاكلة في الظاهر فقط بل يسوقه أحيانا من خلال العطاء الفكري الذي يدخل شعره عنوة فهو عنده اذن لون وصوت وعمق واذا كان المحافظون يرون فيه كدا وجهدا فلانهم تعودوا على طوارئه في أدب القدماء ولم يهضموا بعد أبعاده في أدب الشاعر المتحضر العالم وكما قلنا في الاستعارة نقول في الجناس بأنك تجده في كل قصائد الديوان أنّى فتحته وحين تطالعك القصيدة الاولى فيه والتي يمدح بها خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني والتي مطلعها :

يا موضع الشدنية الوجناء
ومصارع الادلاج والاسراء[1]

تجد ما يروعك من تجنيسه الذى يأخذ به قسرا ويعركه فيعطيكه مشعا لامعا صائتا اذ يقول :

وغدت بطون منى منى من سيبه
وغدت حرا منه ظهور حراء
وتعرفت عرفات زاخرة ولم
يخصصن كداء[2] منه بالاكداء

---

(١) الديوان ص ١
(٢) كدأ - جبل بمكة .

ولطـاب مرتبـع بطيبة واكتست
بردين بـرد ثـرى وبـرد ثـراء
لا يحـرم الحرمـان خيرا نلته
حرمـوا بـه نوءا من الانواء

وانظر تجنيسه في القصيدة الثانية من الديوان وهو يمدح يحيى بن ثابت ومطلعها[1] :

قـدك اتئب أربيت في الغلـواء
كـم تعذلـون وانتـم سـجرائي
راح اذا ما الـراح كـن مطيهـا
كانت مطـايا الشـوق في الاحشـاء
وكـأن بهجتها وبهجـة كـأسها
نـار ونـور قيـدا بوعـاء

ولا اعلم لماذا يعيب الامدي هذا الجناس ؟

ذهبت بمذهبـه السماحة فالتـوت
فيـه الظنون أمـذهَب أم مذهِب[2]

ومن جناساته المشهورة قوله :

لهم سـلف سـمر العوالي وسـامر
وفيهـم جمـال لا يغيض وجـامل

وقوله :

أظـن الدمـع في خـدي سيبقي
رسـوما من بكائي في الرسوم

وقوله :

عطفوا الخـدور على البـدور ووكلوا
ظلم السـتور بنـور حور نهـد

---

(١) الديوان ٢ـ٣
(٢) الامدي ٢٥١

وقوله :

يمدون من أيد عواص عواصم
تصول بأسياف قواض قواضب[٣]

وقوله :

لا يطرد الهمَّ الا الهمُّ من رجل
مقلقل لبنات القفرة النجب

ويكاد كلف أبي تمام بالجناس يكون عاما في قصائد الديوان كلها واختص الجناس الناقص بشكل خاص في تطبيقاته عليه وهو أمر يتم فن الرجل ويعليه لان الجناس الناقص يرفع من الاثر الموسيقي في الشعر ويزيد من ألوانه أما الجناس التام فيخلع طابع الرتابة على الشعر وتلك ظاهرة لا تحمد في التصنيع وان التلوين في أوزان الالفاظ المستعملة في التجنيس تتحول الى مسارات صوتية متحركة تستأثر بخواطر السامع وتشده اليها .

٣ ـ الطباق :

الطباق في مصطلح البلاغيين هو ايراد اللفظ وضده في الكلام وأن ايراده العفوي في النصوص البليغة احسان في العبارة وحلاوة في الاصباغ المستعملة في تلوين الكلام وتزيينه وان الاجادة الذكية في استخدامه تتحول الى استجابة لرغبة الفكر في النزوع الى معرفة مطابق الشيء والى اشباع لتطلع حاستي السمع والبصر الى الالوان التي تطالعها الى جانب أضدادها امعانا في وضوح الصورة .

لقد استطاع أبو تمام بذكائه وشاعريته وذوقه أن يجعل هذا الفن من البديع أداة رائعة من أدوات تصنيعه فلم يكفه أن يعرض أزهاره الملونة في السلال أمام عشاقها كما هي في الطبيعة بل غير ألوانها من عطائه الفكري فأضاف الى نضرتها وشما يلفت اليها النظر ويبعث فيها الحياة واذا وقفنا عند أي قصيدة من ديوانه دون تحر أو اجتهاد يصدق

---

(٣) الديوان ٤٢

عليه جميع من قلناه في مطابقاته ولنأخذ مثلا قصيدته في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري التي مطلعها[1] :

من سجايا الطلول أن لا تجيبا
فصواب من مقلتي أن تصوبا
فاسألنها واجعل بكاك جوابا
تجد الدمع سائلا ومجيبا
أكثر الارض زائرا ومزورا
وصعودا من الهوى وصبوبا
وكعابا ، كأنما ألبستها
غفلات الشباب بردا قشيبا

أليس حقا أن الرجل لا يستخدم مطابقاته دون ربطها بفكره وروحه؟ ثم أليس حقا أنه يقرن طباقه بقرائن متينة تتحد معها بعمق لتزيد من شدها الى القلب بعد السمع ؟ فارتباط السمع بالسؤال والجواب وتعميم الزائر والمزور لكل الارض والصعود والصبوب من الهوى وشائج لا أرى المقابلات معها فقاعات طافية سائبة بل أراها اتحادا متعاضيا لا يقبل انفصاما ولعل في انفصامه موتا للصورة الحية التي قصد اليها الشاعر .

ونجد مثل ذلك في قصيدته التي قالها في مدح محمد بن عبدالملك الزيات ومنها :

ووالله ما آتيك الا فريضة
وآتي جميع الناس الا تنفلا
وليس امرؤ في الناس كنت سلاحه
عشية يلقى الحادثات بأعزلا[1]

فاستخدامه مصطلحات الفقه والشريعة « الفرائض والنوافل » في سياق مدح وربط ذلك بوشيجة حركة المجيء له فريضة والناس نافلة بعد

(١) الديوان ٣٥
(١) الصولي اخبار ابي تمام ١١٩

رائع في فن الطباق وتطبيق أروع لجانب من ثقافته في الشعر وما أكثر ما كان يطبقها .

ومن روائع مطابقاته قوله[٢] :

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت
ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

وقوله[٣] :

وضل بك المرتاد من حيث يهتدي
وضرت بك الايام من حيث تنفع
وقد كان يدعى لا بس الصبر حازماً
فأصبح يدعى حازماً حين يجزع

وقوله أيضا :

يا أيها الملك النائي برؤيته
وجوده لمراعي جوده كثب
ليس الحجاب بمقص منك لي أملا
ان السماء ترجى حيث تحتجب

ان هذه النماذج بقدر ما تتداخل مع المفهوم القديم في المطابقات اللفظية تغرب في صور أبي تمام مهومة في غلالة من استبطانه الذاتي وتعتيمه العقلي . لتكون سبكا مستخلصا من تجربة عميقة يروع فيها الشكل كما يروع المضمون .

٤ ـ الوان اخرى من البديع :

اعتمد أبو تمام ألوانا اخرى من البديع في شعره ولكنه لم يبلغ بها ما بلغه في الالوان الثلاثة سالفة الذكر كما أنها لم تستأثر باهتمامه في التصنيع كما استأثرت به فنونه الاساسية ولكنها مع كل ذلك تكمل

---

(٢) الموازنة ٢٥٦

(٣) ابن المعتز ـ البديع ٤٢

وسائله في الحلية والنقش وسأذكر له جانبا من تلك الالوان مع قليل من الشواهد .

أ ـ رد الأعجاز على الصدور : وهو أن يجعل الشاعر قافيـة البيت متجانسةً مع الكلمة الاولى والثانية من الصدر وهو في تقديرنا شكل من أشكال الجناس الملتزم بنمط معين ومن ذلك قوله[1] :

ومن تيمت سمر الحسـان فـؤاده
فما زلت بالسمر الحسـان متيما

وقد رد كلمة « متيما » (من العجز) الى كلمة « تيمت » (مـن الصـدر) .

ب ـ المذهب الكلامي : هو عند البلاغيين المتأخرين التكرار وسماه الجاحظ وابن المعتز المذهب الكلامي وهو من المحسنات اللفظية ومنـه قول أبي تمام[2] :

المجـد لا يرضى بأن ترضى بأن
يرضى المؤمل منك الا بالرضى

جـ ـ الالتفات : وهو الاعتراض عند قوم وسماه آخرون[3] الاستدراك وقال عنه ابن المعتز « هو انصراف المتكلم من الاخبـار الى المخاطبة ومن المخاطبة الى الاخبـار »[4] ومنه قوله تعـالى « حتى اذا كنتـم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة » .

وقال فيه أبو تمام :

وأنجدتمُ مـن بعـد اتهـام داركم
فيا دمع أنجدني على سـاكني نجـد

---

(١) ابن المعتز ـ البديع ـ٥٢
(٢) نفس المصدر ٥٥
(٣) العمدة ٢/٤٥
(٤) العمدة ٢/٤٧

د ـ حسن الخروج : وهو البراعة في التخلص الى الغرض بعد المقدمة التقليدية للقصيدة ومنه قوله[1] :

لا والذي هو عالم أن النوى
صبر وان أبا الحسين كريم

هـ ـ حسن الابتداءات : وهو اجادة الشاعر في اسلوب استهلال القصيدة وقد كان أبو تمام فارسا لا يجارى في هذا المجال ومن حسن ابتداءاته قوله[2] :

يا بعد غاية دمع العين اذ بعدوا
هي الصبابة طول الدهر والكمد

وقوله في أبي سعيد[3] :

لا أنت أنت ولا الديار ديار
خف الهوى وتوالت الاوطار

وقوله يمدح الخليفة المعتصم[4] :

الحق أبلج والسيوف عوار
فحذار من اسد العرين حذار

هـ ـ تشبيه المختلفين والضدين : وهو لون من التشبيه يقتضي احتراسا ودقة لانه جانب عقلي الى جانب كونه صورة فنية ومنه قول أبي تمام[5] :

ومسافة كمسافة الهجر ارتقى
في صدر باقي الحب والبرحاء

و ـ التقسيم : وهو استقصاء الشاعر جميع أقسام ما أبتدأ به وقد أدخله أبو تمام في تصنيعه ومن ذلك قوله[6] :

---

(١) ابن المعتز ـ البديع ٦١
(٢) نفس المصدر ٧٦
(٣) الديوان ١٤٤
(٤) الديوان ١٥٠
(٥) العمدة ٢٩٦/١
(٦) العمدة ٢٨/٢

تجـــلى به رشـدي وأثرت به يـدي
وفاض به ثمـدي وأورى به زنـدي

وقوله محسنا استخدامه :

تدبـــير معتصـــم باللّه منتقـــم
للّه مـــرتقب في اللّه مـــرتغب

وقال على غير هذا النمط من التقسيم المباشر

عن ثـــامر ضاف ونبت قرارة
واف ونـــور كالمراجل خافي

ولو استقصينا الفنون الفرعية للبديع التى يذكرها البلاغيون لطـــال بنا الكلام ولهم فيها أكثر من مائة وخمسين لونا ترد جميعا الى الاصـول المعروفة في علم البلاغة واذا كنا قد أكدنا على ما شهر بـه أبـو تمـام في تصنيعه بالفقرات الثلاث الاولى فلانها فرض على الباحث في بديعه أمـــا الاشارات الاخيرة فمن نوافل الحديث في التصنيع .

تصنيعه العقلي :

ان أبا تمام بوصفه شاعرا مثقفا لم يستطع أن يتجاوز ثقافته وعصره المتحضر فظهرت آثار تلك الثقافة في أدبه وتحولت بذكائه الى وســائل جديدة في التصنيع يمكننا أن نعدها صورا من البـديع العقلي في أدبـــه وقـد رأينا في أقوال نقـاده من ينعى عليه كـده وجهـده في التعميـــة والغموض الذى يطبع جانبا من شعره ومصـدر هذا النقد هو الفة النقاد للنصوص السابقة التى تجردت أو كادت تتجرد من الدخـول في هـذا الجانب من التصنيع بعوامل الفوارق الحضارية التي أدت الى غيـــابها عن المتقدمين وشخوصها أمام أبي تمام وجيله ومعنى ذلك أن الادوات الفنية مسألة يتحكم فيها عامل الزمن تحكما بالغا .

ان فنون التصنيع العقلي عند أبي تمام كثيرة جدا تمتزج مع الالوان التقليدية في تحسين الكلام ترافقها وتتعامل معها وتشكلها بصيغ جديدة على الشعر العربي ومن تلك الفنون :

١ ـ الاغراب في التصوير : ان الصـــورة الشعرية التي يولـدها الشاعر القديم أو المحافظ من خلال التشبيهات أو المجازات تفصـح عن نفسها بالمظهر اللامع والمتخيل بدون عنـاء ولكنها تتحول عنـد أبي تمـام تجسيدا يظهر فيه أثر العمق الذى يعاني منه السامع أو الدارس لاحـكام استيعاب الصورة المقصودة ومن صوره الغريبة المملوءة بالاستعارة قولـه وقد جعل للاحزان أنملة :

سلوت ان كنت أدري ما تقـــول اذن
جعلت أنملة الاحزان في اذني

وقوله وقد اصطنع لوجهه غطاء غريبا من الخجل :

أتاني من الركبان ظن ظننته
لففت له رأسي حيـــاء من المجـــد

وقوله وقد استعار للمعروف كبدا وهو ما أنكره عليه الامدي :

لـدى ملك من أيـكة الجود لم يزل
على كبد المعروف من فعله برد

وقوله مصطنعا صورة غريبة لوصف روضة أصابت مطرا ثرا :

ومعرس للغيث تخفق فوقـــه
رايـــات كـل دجنـة وطفـاء

٢ ـ الاشارة والرمز :

قد يعمد أبو تمام من خلال عشقه لبلاغة الصورة وتوثيقها بالعمـــق الفكري الى الاشارة والرمز ويترك لســـامع شـعره أو قارئه أن يدخل في تيه من تحديد القصد أو ادراك المراد . من ذلك قوله :

أما وأبي الرجاء لقد ركبنـا
مطايا الدهر من سود وبيض

وقد أشار بالرمز الى نحس الايام بالسود وسعدها بالبيض وكذلـك قوله من مرثية محمد بن حميد الطوسي وقد رمز الى مقتله « بالثيـــاب

الحمر ، والى ، رضوان الله عليه وتسليكه في طريق الجنة ، بالثياب الخضر :

تردى ثياب الموت حمرا فما دجا
لها الليل الا وهي من سندس خضر

وقوله مكنيا عن الكرم :

صيغت له شيمة غراء من ذهب
لكنها أهلك الاشياء للذهب

وأكثر ما كان يسلك الى الرمز بالكنايات المغربة البعيدة والاشارات الذكية .

٣ ـ القياس العقلي والفني :

ان العطاء الثقافي والفكري الذى انطوت عليه شاعرية أبي تمام تحول الى استغلال فني رائع في استخدام الاقيسة العلمية والمنطقية بدقة فتراه اذا افترض وصفا أو صورة قاس لها من العلم ما يقربها للذهن ومن البدهيات ما يثبت حقيقتها من ذلك قوله في معرض رثاء .

ان ريب الزمان يحسن أن يهـ
ـدي الرزايا الى ذوي الاحساب
فلهذا يجف بعد اخضرار
قبل روض الوهاد روض الروابي

فمصاب العظيم بالرزية ليس غريبا ما دام روض القمم يجف قبل روض الوديان ومنخفضات الارض وهي أدنى من الجبال .

وقوله مستخدما أقيسة اللغة والنحو في وصف الخمرة :

خرقاء تلعب بالعقول حبابها
كتلاعب الافعال بالاسماء

وقال مبررا شحة أموال الكريم :

لا تنكري عطل الكريم عن الغنى
فالسيل حرب للمكان العالي

وقد قاس ذلك الى عدم احتفاظ قمم الجبال بماء المطر مع أنها أول ما يلاقيه من الارض .

وقال مداريا صاحبته وقد آلمها تخديد وجهه يقيس ذلك بشطب السيف البائع وطرائقه التي لا تمنع حدته :

لا تنكري منه تخديدا تجلله
فالسيف لا يزدرى ان كان ذا شطب

وأمثال هذه المظاهر العقلية الفنية كثيرة في شعر الرجل تملأ ديوانه الضخم الذى تطالعنا قصائده وقد أحكمها فنا وتصنيعا وعمقا وان سلوك المحافظين في نقد الرجل من هذه الزاوية يمثل ابتعادا عن الرؤية السليمة للفن من خلال عصره وظروفه وبواعثه ولعلنا في ضوء علمنا الحديث بالشعر فنا انسانيا متطورا وخاصة بعد كشوفات علم النفس والقاء الضوء على خبايا نفسية الانسان ومعرفة الالات المعقدة لكتابة القصيدة نستطيع أن ننظر بعين محايدة الى شعر أبي تمام بل نستطيع القول أنه من الممكن تفهم كثرة من أبياته التي أنكرها النقاد القدامى الذين حددوا للشعراء دروبا للقول مألوفة حتى تشابهت وجوه الشعراء والمعروف أن الشعر هو استبطان ذاتي للشاعر ولما كان الشعراء يختلفون اختلاف بقية الناس كان لا بد للشعر أن يختلف عند كل شاعر من زوايا الالتقاط في عمق الصورة أو تسطيحها في حدة الاحساس أو فتوره وفي مدى رسم الصورة الخيالية كما أحسها الشاعر في لحظة انفعال معين وشبيه بالصور التي أنكرها النقاد القدامى في شعر أبي تمام قول شاعر فرنسي « ان السماء في نعومة اللؤلؤ » ومن الواضح أن السماء ليست ناعمة لانها ليست شيئا ماديا فضلا عن تعذر لمسها لنعرف

أهي ناعمة أم لا ومع ذلك فاننا نحس بما وراء تعبير الشاعر الفرنسي من أحساس ـ أن همة الاول هو أن يصور لنا أحساسه في لحظة ما فقد أحس حينما نظر الى السماء أنها ناعمة وبدهي أنه لم يرد تقرير نعومة السماء أو أن يضيف الى معلوماتنا حقيقة اقتنع بها هي أن السماء ناعمة ولكنه أراد أن ينقل أحساسه الخاص في لحظة انفعال معين ففي هذه اللحظة أحس الشاعر أن السماء ناعمة[1] .

أن الشاعر ههنا يصور احساسه المتفرد الصادق وعلينا أن نستبطن هذا الاحساس فلسنا في مجال درس من دروس « الجغرافية » حتى ننقده ونقول له : لا ، السماء ليست ناعمة والا أصبحنا مثل نقادنا القدامى الذين أنكروا على أبي تمام أن يكون للملام ماء فاننا لو تابعنا منطق بعض هؤلاء النقاد لسقط أجود الشعر ومن الممكن القول : لو تابعناهم القول في هذا المنطق لقلنا : أن الصحراء لا ترعى الجمل بالمعنى المحدد الحر في الوقت الذى يعجب النقاد باستعارته « رعته الفيافي » ، أن تذوق الشعر يجب أن يعتمد على رحابة في التصور يبتعد عن التفكير المقصقص الاجنحة فكما أن الملام لا ماء له نعلم أن الصحراء لا ترعى الجمل ولكن هي الصورة الخيالية يكونها الشاعر من أشياء متباعدة ولولا هذا لصار الشعر علما .

المزج بين ألوان تصنيعه في قصيدة عمورية :

تكاد براعة أبي تمام في مزجه الجميل بين أدوات تصنيعه كلها تلتقي في قصيدة عمورية التي قالها في مدح الخليفة المعتصم بالله العباسي وفتح عمورية ولم نعمد الى أختيارها لانها من أجود قصائد الديوان ـ وان كانت من روائعه ـ بل لانها حملت الينا الرجل بقوته وعنفه وكبريائه يلي فنه من خلال حسه الثائر وعقله المفلسف يقرن بديعه اللفظي ببديعه العقلي ويدفع أنماطه مقتدرا اقتدار الخليفة وجيشه على فتح

---

(١) د. كمال نشأت (شاعرية ابي تمام) بحث لم ينشر .

عمورية وقهر الروم وبمستوى ما يملأ قلبه من فرح بالنصر وكسب الحرب ولم ينس فلسفته في مطلع القصيدة مزدريا المنجمين وكتبهم أمام حد السيف وقد توفرت دواعي الحرب مع العدو ونفذها المعتصم وانتصر خلافا لما تنبأ به المنجمون من أصحاب الكتب والقراءات بها كما لم ينس أدواته في الحلية فطابق واستعار وجانس وهو يقول :

السيف أصدق انباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في
متونهنّ جلاء الشك والريب

أن هذا المزيج من ألوان الجناس بين (حده ، والحد) وبين الصفائح والصحائف والمطابقة بين (الجد واللعب) و (البيض والسود) مع الالفاظ الفلسفية (الجلاء ـ الشك ـ الريب) سبك قل من يقدر على مثله من الشعراء ثم يمضي في القصيدة يحاجج المنجمين ويهاجمهم بحدة الغاضب وثقة العالم الثبت فيقول :

أين الرواية بل أين النجوم وما
صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

تخرصا ، وأحاديثا ملفقة
ليست بنبع اذا قيست ولا غرب

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به
نظم من الشعر أو نثر من الخطب

وحين يصل الى وصف مظاهر الحرب يبلغ تصنيعه ذروة في الايغال بالعمق والتصنيع فيقول في المدينة المفتوحة :

وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها
كسرى وصدت صدودا عن أبي كرب

من عهد اسكندر أو قبل ذلك قد
شابت نواصي عداها وهي لم تشب

بكر قد افترعتها كف حادثة
ولا ترقت اليها همة الشهب

حتى اذا مخض الله السنين لها
مخض البخيلة كانت زبدة الحقب

أتتهم الكربة السوداء سادرة
منها وكان اسمها فراجة الكرب

فالمدينة فتاة حسناء مليحة الوجه امتنعت على الملوك من أمثال كسرى وهي بكر لم تفترع قبل وصول الخليفة لها فكان فتحه زبدة لمخض السنين الطويلة .

ويمزج الشاعر بين الوصف والمدح من نسيجه المتألق الفذ فيقول :

لقد تركت أمير المؤمنين بها
للنار يوما ذليل الصخر والخشب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى
يقله وسطها صبح من اللهب

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

ضوء من النار والظلماء عاكفة
وظلمة من دخان في ضحى شحب

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت
والشمس واجبة من ذا ولم تجب

مـــا ربع ميـــة معمـــروا يطيف بـه
غيلان اشهى الى ناظري من خدها الترب

سماجة غنيت منـا العيـــون بهـــا
عن كل حسن بـــدا أو منظر عجب

وحســـن منقلـــب تبـــدو عواقبـــه
جاءت بشاشته عـــن ســوء منقلب

أن التشابك الذي تناول فيه تدبيجه ومشاكلاته ليس من الســـهل تحليله الى عناصر تصنيعه في مستوى هذا السبك المتين فالمجازات تحتـوي التجنيسات والمطابقات وتوافر الاضداد تأخذ برقاب التصنيع العقلي وألفاظ الغزل تجاور مشاهد الحرب فلا تجد نفورا أو نبواً .

ولعل أحدا لم يبلغ في عمق تصنيعه ما بلغه أبو تمام في هذا البيـــت من القصيدة وهو يصف وقود الحرب من أرواح الرجـــــال وصـــفا فلســـفيا :

ان الحمامين من بيض ومـــــن ســـمر
دلوا الحياتـــين من مـــاء ومن عشـــب

وما أروع ما يصف هزيمة الاعداء في اخر القصيدة وهو أعلى كعبـا في قوة أدائه الشعري وزنا وقافية وتصنيعا :

ولى وقـد ألجـم الخطـــي منطقـــه
بســكتة تحتها الاحشـــاء في صخب

موكلا بيفـــاع الارض يشرفـــه
من خفقة الخوف لا من خفقة الطرب

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت
جلودهم قبـــل نضـج التـين والعنب

وختاما أن أبا تمام ظاهرة فنية فريدة لم تشغل القرن الثالث الهجري فقط بل امتد أثرها وخطرها حتى عصرنا الحاضر وان بحثا مقتضبا كهذا البحث لا يمكن أن يفي الرجل حقه في الاطوار الفنية التي سلك فيها وأرسى أصولها ولا أريد أن أقرر أن ما ذهب اليه جملة النقاد من اتهامه بالغموض واعتماد حزونة الالفاظ باطل أو لا أساس له ولكنني أوجه هذا الغموض في مسار الرجل باعتباره شاعرا مثقفا عالما وقد ملك ظواهر عصره كلها فصنع منها شعره على النماذج اللفظية التقليدية التي أرضت المحافظين وعلى النماذج العقلية التي أرضت العلماء وعلى صور المزج بينهما وقد أرضى فكرة التطور اللازمة لكل فن .

أن شعره نمط من التعبير الذي تتداخل فيه الثقافات كما تتشابك فيه معلومات عصره من علوم العربية فلم يعد الشعر عند ابي تمام غناء ساذجاً وانما هو فن معقد يعكس تعقيد عصره اسلوبا وثقافة وحضارة .

ثبت المصادر والمراجع

١ ـ الاغاني لابي الفرج الاصفهاني طبعة دار الكتب ـ القاهرة وطبعة بولاق ١٣٨٥ هـ .

٢ ـ أخبار أبي تمام لابي بكر الصولي تحقيق خليل محمود عساكر وجماعته طبعة بيروت .

٣ ـ اعجاز القرآن للباقلاني طبعة القاهرة ١٣٤٩ هـ .

٤ ـ البديع لابن المعتز نشرة كراتشقوفسكي طبعة مكتبة المثنى بغداد .

٥ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي طبعة القاهرة ١٩٣١ م وطبعة بيروت ـ نشر دار الكتاب العربي .

٦ ـ ديوان أبي تمام نشر محيي الدين الخياط طبعة القاهرة .

٧ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة طبعة دار المعارف ـ القاهرة .

٨ ـ العمدة لابن رشيق القيرواني تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٦٣ م .

٩ ـ الموازنة بين أبي تمام والبحتري تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ـ القاهرة ١٩٥٩ م .

١٠ ـ الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني ـ تحقيق علي محمد البجاوي ١٩٦٥ م .

١١ ـ شذرات الذهب لابن العماد نشرة القدسي القاهرة ١٣٥٠ هـ.

١٢ ـ طبقات الشعراء لابن المعتز ـ تحقيق عبدالستار أحمد فراج ١٩٥٦ م .

١٣ ـ أسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجاني طبعة المنار ـ القاهرة ١٩٢٥ م

١٤ ـ المثل السائر لابن الاثير طبعة بولاق القاهرة ١٢٨٢ هـ وطبعة البابي ـ القاهرة ١٩٣٩ م

الجامعة المستنصرية
مكتبة كلية الآداب
الرقم .....
التاريخ / / ١٩٨

١٥ ـ الوساطة ـ بين المتنبي وخصومه ـ الجرجاني ـ مطبعة صبح ـ القاهرة ١٩٤٨ م وطبعة البجاوي ١٩٥١ م .
١٦ ـ تاريخ الادب العربي ـ عمر فروخ طبعة بيروت ١٩٦٨ م .
١٧ ـ ابو تمام الطائي حياته وشعره ـ نجيب محمد البهبيتي ـ القاهرة ١٩٤٥ م .
١٨ ـ تاريخ الادب العباسي ـ نيكلسن ـ ترجمة الدكتور صفاء خلوصي ـ بغداد ١٩٦٧ م .
١٩ ـ القاموس المحيط ـ الفيروز أبادي .
٢٠ ـ في الادب العباسي ـ الدكتور علي الزبيدي ـ بغداد ١٩٥٩م.
٢١ ـ دواوين الشعر العباسي ـ الدكتور علي الزبيدي ـ مجلة كلية الاداب بغداد ١٩٦٦ م .
٢٢ ـ امراء الشعر العربي ـ أنيس المقدسي ـ بيروت ١٩٦٣ م .
٢٣ ـ أبو تمام الطائي ـ خضر الطائي ـ بغداد ١٩٦٦ .
٢٤ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي ـ شوقي ضيف ط٦ القاهرة.
٢٥ ـ الادب العربي في اثار الدارسين ـ جماعة من المؤلفين ـ بيروت ١٩٦١ م .
٢٦ ـ العصر العباسي الاول ـ شوقي ضيف ـ القاهرة ١٩٦٦ م .
٢٧ ـ البلاغة الواضحة ـ علي الجارم ـ طبعة القاهرة .
٢٨ ـ شاعرية أبي تمام ـ الدكتور كمال نشأت ـ بحث لم ينشر .
٢٩ ـ الفهرست لابن النديم طبعة القاهرة .